

علوم البلاغة بين القدامى والمحدثين

للأستاذ كامل السيد شاهين

—•••••—

مدرسة الرسالة ، لها طابعها الخاص ، في المناجاة والنقاش على هذا أسست ، واستحدثتها الأيام بضروب من المحن ، تثبتت على الزعازع ، وانتصرت على الأغراض والآهواء . يعلم ذلك من تابع « الرسالة » منذ مولدها الميمون إلى حاضرها الزاهر . فالرسالة للجميع بلا تفضيل ولا إبطاء . لأن البحث والدرس يلدان الحقيقة التي كانت نشدة أصحاب العقول منذ خلقت الفلسفة وبهما تقررت الحقائق وثبتت ، ولم يسهل فيها التضييل مع السافيات . إذا تقرر هذا ، فليسمح لي الزميلان : الطنطاوي والمهاري ، أن ألقت نظرهما في رفق إلى مزالتي ما كنت أحب لها أن يتورطا فيها ، أو يتحدرا إليها فقد راع الأول أن يقول أستاذ البلاغة في الجامعة « الله يقول انبيه : يا أخى أنت حارق نفسك ليه ؟ » . وراح يزعم أن هذا إشراك وكفر ، ويستعدي على الجامعة والجامعيين ، وبشير الناس ليداركو أبناءهم أن يجرفهم نيار الشرك والإلحاد !

بالله هوّن عليك يا على ! ، فليس تمت شرك ولا كفر ، وأنت أخبر الناس بذلك ، وأدراهم أن هذه الكلمة قد فقدت حقيقتها في أفواه الناس ، ألم تسمع إلى الفلاح يهز حماره ، ويقول يا أخى سر ! أقرء قصد أخوة النسب أو الرضاع ، أو الآدمية ، أو الحمارية . لا : إنما هي كلمة تحمّن وتمطف ! وشبه بهذا قول السائق لحصانه زياشيخ ! والنظار في هذا أكثر من أن تحصى . فلا تُزعج ، ولا تستنفر وأبق على الجامعة والجامعيين ، ودع حديث الكفر والإلحاد فقد جنت مصر نمرأ مرأ في دهر طويل ، كانت حربية أن تصرفه فيما يقيد ويفنى !

ثم اللغة العربية ، ليست لغة الإيمان والإسلام ، فقد سبقت الإيمان والتوحيد بقرون طويلة ، فإن أبيت إلا أن تخرج لغة مؤمنة مسليمة موحدة ، فدونك فاضع دراستها في كلية اللغة

ودار العلوم بمصر ، ودار العلوم ببغداد ، وأنشىء لك اللغة المباركة التي ولدت مسلسلة وشبت مسلسلة ، ثم أدعنا ، وإنا — إن شاء الله — مستجيبون ! وأظن هذه لمحة دالة في علاقة اللغة بالإيمان والإسلام . فإن غنمت فستفرد لها مقالا خاصا يضم الشئيت ويجمع التفريق .

وأما أنت يا مهاري ، فكنت بمنجاة من اللوم ، إذ عرضت للأسلوب الذى تدرس به البلاغة في الجامعة فكل امرئ فيها يحاول مذهب ، وما كنت أحسب أنه سيفريك نقد الأسلوب بنقد الآراء ، فأما إذا انحدرت إلى هذا فهلم ! :
(١) تقول : « إن الفكرة المتسلطة عليه في هذا الفن أن يجعل لكل عبارة من عباراته منبعاً لمعان نفسية » .

إى نعم ، يا على ، أنت قرأت تعريف البلاغة ؟ إن الذى لا يختلف فيه اثنان هو أن البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال ولا أزيد بياناً ولا بسطاً ، ولكن هذه المطابقة لا تكون إلا بإدراك التكلم لنفسية السامع وما تحوى من ملابسات ، فهذا هو لغوى كلام الأستاذ الخولى ، أفتأمرى في هذا ؟ إذن فهات تعريفك أنت لعلم البلاغة فأنا منتظرون ! .

(٢) تقول : « أن الأستاذ لا يؤمن بالماديات المرفقة ، ولا يستحسن تشبيهه الفرس بالثلج في البياض » : فهو ذاك يا صاح ! فإنه لا يحتمل إلا حيث يكون للبياض حزية كالمساعدة على الاختفاء ، وعدم ظهوره في آل الصحراء ، فأما إذا لم تعتبر هذه الحزية فلا فضل لأبيض على أبلق أو كيت ! وذلك هو ما قصد إليه الأستاذ من تنبيهه على تفاهة التفضيل المقتضى للتشبيه في بيت ابن الزبير الأسدي .

(٣) غاب أستاذ الجامعة البتتين :

ولا زوردية تزهو بزرقها بين الرياض على حر اليواثيت كأنها بين قامات ضعفن بها أوائل النار في أطراف كبريت وخلاصة العيب أن الشاعر شبه صورة بصورة في الوضع واللون ، ولم يلتفت إلى ما وراء ذلك من إحماءات وأفاعيل ، ينتظرها السامع من شاعر !

وقد خالف عليه الأستاذ المهاري بأن الفن يوجد في المعاني كما يوجد في الماديات ..

ولكن نقول غلبت عليهما شقوة العصر وفساد الذوق ، وقوة الفلاسفة ! .

فكلام عبد القاهر في أن التباعد كلما زاد كان موجبا لارتياح النفس ليس مطردا ، وليس أدل على هذا مما سفته لك مثلا من تشبيه الدم بالخمر الأحمر .

(٤) وأما حسد جرير لمدى بن الرقاع العاملى عندما أنشد :
ترجى أغن كأن إبرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها
فناحيته أنه أعرابى لا يعرف قراطيسها ، ومحاربا وأقلامها ، فظن
جرير أنه لن يهتدى إلى شيء يشبه به روق الأغن ، فلما أصابه
حسده جرير . ألا تراه يقول : « قلت : قد وقع / ما عساه يقول ؟
وهو أعرابى جلف جاف ! » .

فأنت قد وقعت — يا على — في سر حسد جرير ،
ولم تدركه ففاننت أنه إنما حسده لأنه كان تشبيها بارعاً مصيباً له
تأثيره وجماله ، وما هو بذلك .

طاهر السمر شاهين
مدرس بالمدارس الأميرية

(القاهرة)

كتاب الخصائص

قررت دار الكتب المصرية بيع الجزء الأول من
كتاب الخصائص لابن جني ، وهو مروض للبيع يومياً
وتمن النسخة الواحدة مائة مليم للأفراد وثمانون مليم
لباعة الكتب .

الجامع لأحكام القرآن

وقد أتمت طبع الجزء الخامس عشر من كتاب الجامع
لأحكام القرآن الكريم لابن عبد الله أحمد الأنصارى
للقرطبي وهو مروض للبيع يومياً و تمن النسخة الواحدة
منه ٤٥٠ مليم للأفراد ، ٤٠٠ مليم لباعة الكتب .

وليس هذا بالكلام يُصنئ إليه ، فالملاديات بحمة لا تأثير لها
وإنما التأثير لما يتعلق بها من معاني ، أبا ن قلت : إن تمثال الزهرة
كالزهرة كنت مشبهاً تشبيهاً مصيباً مؤثراً ، لا إنه لاعتبار إلا
لما يوحيه ويستلزمه هذا التشبيه من دقة الصناعة والمهارة في
المشاكهة بين زهرة الورق أو الصلصال وأختها الطبيعية الحية .

ياسيدي : إن مثل التشبيه في البيتين في خلوه من الروح
كمثل من يرى بقمك من دم قتيل أوطأ ثمثورة على الرمال ، ثم يسير
فيجد خرزات حمراً مستديرة فيفجأ السامع : أتدري ؟ ! إن يقع
الدم التي رأينا كهذه الخرزات احمرارها . احمرارها ، واستدارتها
استدارتها ، وحجمها حجمها ، وانتثارها على غير نظام انتثارها !
أفيمجبك هذا ويكون تشبيهاً غريباً عجيباً مصيباً مستحقاً
للإطراء والثناء ؟ !

أحسب أن لا ! .

ذلك أن السامع حين يذكر الدم تترى الرهبة والإشفاق
والرثاء لصاحب الدم المطلول ، وحب التشفي عن سفكه ، ولا
يخطر له ببال أنه مستدير أحمر منشور على غير نظام .

فشل هذا التشبيه عبث ولفو وشعبدة ، وسقوط بالقيم الفنية
للشعر إلى حد سخيف ! .

وهمة أهمها ، لا بل مججلة أعلنها لا بتردد ولا هائبا ،
تلك : أن الثقة بأذواق النقاد القدامى يجب ألا تطرد ، وأن
استشهادهم يجب أن يكون موضع نظر جديد ، وأن الاستشهاد
بآرائهم يجب أن يمرض على عكس التحريض . ذلك بأنهم — على
جلالهم — قد شغلهم ذوق العصر ولم تستقم في أذواقهم اللغة
غضة طرية ، عطلا من زينة وحلية ، وأثر البيئة أثر جليل في
الأذواق والمقول ، ومن ثم كانت تفاهة الاستشهادات ،
والتخريجات ، وكان لجوؤهم إلى الفلسفة والتأحية العقلية هرباً
من الفاحية الذوقية ، ففاسوا بالشبر والقيراط ، واتخذوا المبالغة
أساساً للتفضيل ، ولم تظهر لهم الزينة في القوة والمذوبة والسلاسة
والنعم فطلبوها بالصَّبْغ والألوان والشمعة اللقظية . إذا ثبت
هذا فأعفى — عافاك الله — من استحسان البلاغيين ، وعدم
استحسانهم ، فنحن نسأل الدواقين من أمراء البيان . فظه حسين
والزيات ، والمقاد ، وأحمد أمين ، و خليل مطران ، أولئك
المحكّمون ترضى حكومتهم . فأما السعد والخطيب فلا نبيهما